

# أساطير وأوهام الخطر الإسلامى

المستشرق البريطانى البروفيسور فريد هاليداي له مؤلفات عديدة عن الإسلام تتميز بالتحليل العلمى للموجة العدائية للإسلام السائدة فى بريطانيا والتي يسميها الباحثون البريطانىون (إسلاموفوبيا) أى مرض الخوف من الإسلام.

والبروفيسور هاليداي أستاذ فى جامعة لندن، وهو الذى تصدى لتفنيد نظرية صراع الحضارات التى ظهرت وانتشرت فى الولايات المتحدة، وهى النظرية القائمة على حتمية الصراع بين الغرب والإسلام، ويعتبر هاليداي هذه النظرية خرافة ولا تستند إلى أساس علمى أو تحليل واقعى، وهو يرفض أيضاً الفكرة السائدة لدى كثير من مفكرى الغرب القائلة بأن شعوب الشرق الأوسط وطريقة تفكيرها تمثل حالة خاصة وأنها شعوب تختلف اختلافاً جوهرياً عن بقية شعوب العالم.

وهو أيضاً يرفض الفكرة السائدة بأن هناك نظاماً عالمياً جديداً ظهر بعد سقوط الاتحاد السوفيتى وتنفرد بقيادته الولايات المتحدة، ويرى أنه من الصعب الحديث عن وجود نظام عالمى جديد حتى الآن، وليس هناك ما يؤيد ذلك سوى إعلان الرئيس الأمريكى السابق جورج بوش الأب عن ظهور هذا النظام العالمى الجديد. والحديث عن هذا النظام العالمى وعن قيادة الولايات المتحدة للعالم لا ينطلق إلا من الولايات المتحدة نفسها، ويتردد فى دول العالم الثالث التى خضعت لهذه الأسطورة، وهى مجرد أسطورة لأنها تبالغ فى تقدير القوة السياسية والثقافية الأمريكية وقدرتها على الهيمنة على العالم. وكل ما يحدث منذ انتهاء الحرب الباردة أن طغى الخطاب عن الإسلام كخطر وعدو جديد للغرب، وهذا ما طرحه الباحث الأمريكى صمويل هنتنجتون، وردده الخمينى فى إيران، بينما هذا الصدام المزعوم بين الغرب والإسلام لا أساس له، ومعظم الحروب والنزاعات لم ولن تنشأ بين الحضارات وإنما تنشأ حين تتعارض المصالح والأطماع، كما حدث فى الحرب بين إيران والعراق، والبلدان مسلمان وينتميان إلى حضارة واحدة، وقبل ذلك قامت الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية بين دول تنتمى إلى الحضارة الغربية (ألمانيا

وفرنسا وبريطانيا). كذلك فإن التناقض الذي نشهده في العالم اليوم قائم بين الصين واليابان وهما ينتميان إلى حضارة واحدة.



### فلماذا إذن ظهرت نظرية الصدام بين الغرب والإسلام؟

يرى هاليداي أن هناك أكثر من سبب؛ السبب الأول أن الحكومات والقادة السياسيين يروجون لهذه النظرية لإخفاء الدوافع الحقيقية للصدام، وهي في الأساس دوافع اقتصادية واستراتيجية، وإلا فكيف تُفسّر التخوف في بريطانيا من نفوذ السوق الأوروبية المشتركة ومن خطر الثقافة الأمريكية، وكيف تُفسّر تخوف أوروبا من الهجرة من العالم الثالث؟ والسبب الثاني: هو الخوف في الغرب من التعددية الثقافية داخل البلد الواحد، هذا الخوف ظاهر في الولايات المتحدة كما عبّر عنه صمويل هنتنجتون الذي حذر من خطر تعدد الديانات واللغات والثقافات في المجتمع الأمريكي ولهذا فهو مجتمع غير متجانس، ودعا إلى بناء وحدة ثقافية في المجتمع الأمريكي لصهر كل من يعيش فيه في بوتقة واحدة تجعل الجميع أمريكيين، ولاؤهم وانتماؤهم لأمريكا وحدها، وثقافتهم هي الثقافة الأمريكية. وهكذا نرى أن الأزمة ليست بين الحضارات وإنما هي أزمة داخل المجتمع الأمريكي، وهو مجتمع له طبيعة خاصة، لأنه مكون من مجموعات من المهاجرين من حضارات متعددة ولهم ديانات ولغات وثقافات وعادات وقيم مختلفة مما يهدد وحدة المجتمع الأمريكي في رأى هنتنجتون في كتابه (من نحن؟).

ويشير هاليداي إلى موقف بعض المفكرين الغربيين من الإسلام، ويضرب مثالا بالمفكر الألماني (جيرهارد لبراند) الذي جعل محور كتاباته التأكيد على ضرورة احتواء الحركة الإسلامية وتوجيهها لتحقيق مصالح أوروبا. ثم راجت أفكار تدعى أن الإسلام دين يعادى كل جديد، ويرفض التحديث والتقدم العلمي والحضارى ولا يتقبل الديمقراطية، ويتناقض مع قيم الحضارة الحديثة عموماً. ويستدل جيرهارد لبراند على ذلك بتصاعد الحركات الأصولية المتشددة في عدد من الدول الإسلامية، ويرد هاليداي على هذه الأفكار بأن السبب الرئيسى لتصاعد الحركات الأصولية المتشددة في العالم الإسلامى يرجع إلى الأزمة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التى تعاني منها هذه الدول لأنها دول نامية وليس لأنها دول إسلامية، خاصة أن حكوماتها لم تنجح فى حل هذه المشكلات. فالشاه فى إيران مثلاً لم ينجح فى حل المشكلات التى كان يعاني منها الشعب الإيرانى. ويعتبر هاليداي أن نظام عبد الناصر فى مصر لم يستطع أيضاً حل مشكلات المجتمع المصرى. وهذا هو ما حدث فى أندونيسيا، والجزائر، وباكستان وغيرها من البلاد الإسلامية. ومن هنا ظهرت الأصولية كحركة سياسية اجتماعية تستغل إخفاق التجربة الوطنية العلمانية وتدعو إلى حلول أخرى، ولكن

هذا التيار الأصولى - كما يقول - لا يملك هذه الحلول، ولكنه يملك فقط خطاب الإغواء والإثارة. بينما يتنكر هذا التيار للديمقراطية والتحديث ويرفض الثقافة الغربية عموماً. وهذا ما جعل بعض المفكرين الغربيين يروجون لفكرة وجود قطيعة بين الإسلام من ناحية وبين الديمقراطية والتحديث والغرب عموماً من ناحية أخرى، وهذا غير صحيح، ومن يدرس الإسلام يجد أنه لا يوجد تناقض بينه وبين الديمقراطية والتحديث وحقوق الإنسان وإنصاف المرأة، وإن كانت بعض الحركات الإسلامية تظهر الرفض لهذه المبادئ إلا أن هؤلاء لا يمثلون الإسلام والمسلمين جميعاً.

أما موقف هاليداي من المستشرقين فإنه يلخصه بقوله إن هناك جانبين أولهما دور إيجابى، والثانى دور سلبى، والسبب فى ذلك أن كل عمل أكاديمى تاريخى أو ثقافى يرتبط بقوى سياسية واقتصادية معينة، وليس هناك عمل أكاديمى منفصل عن الأهداف السياسية؛ وبعض المستشرقين ارتبطوا بالقوى والأهداف السياسية لبلادهم، وعملوا مستشارين لحكومات أو لمخابرات أو لقوى اقتصادية وسياسية، وهناك مستشرقون يعملون لخدمة الاستعمار، ولكن يجب ألا نغفل وجود مستشرقين آخرين يقفون إلى جانب شعوب العالم الثالث. والمثال لذلك المستشرق الفرنسى ماكسيم رودنسون الذى دافع عن حقوق الشعب الفلسطينى، وعن النضال العربى للتحرر من الاستعمار الفرنسى فى الجزائر ومن الاستعمار عموماً. كذلك كان المستشرق الفرنسى جاك بيرك، وغيرهما من المستشرقين الذين ربطوا بين عملهم الأكاديمى وتضامنهم مع حقوق الشعوب الإسلامية. وتستحق آراء هاليداي أن نعرض لها بشيء من التفصيل.

### خطر الإسلام أم خطر على الإسلام؟

يرى فريد هاليداي أن نظرية التهديد الإسلامى - التى انتشرت فى الغرب منذ السبعينات من القرن العشرين، وازداد انتشارها بعد قيام الثورة الإيرانية فى عام ١٩٧٨ و١٩٧٩، حتى أصبحت قضية تحدى الإسلام للغرب هى القضية التى تشغل السياسيين والقادة والمفكرين فى دول الغرب - ليست سوى خرافة. والغريب أن عدداً من القادة المسلمين شاركوا فى تأكيد هذه الخرافة. ونتيجة لتعمق هذه النظرية فى المجتمعات الغربية نشأ شعور بمعاداة الإسلام واتجاه إلى العدوان على المسلمين.

ويعلن هاليداي بوضوح فى كتابه (الإسلام والغرب: خرافة المواجهة) أن القول بأن الإسلام يمثل تهديداً للغرب هو قول مزلل ولا أساس له. وفى الحديث عن الإسلام فى الغرب هناك خلط بين المبادئ والمعتقدات والعقيدة الإسلامية وبين ما تطرحه جماعات الإسلام السياسى والجماعات المتعصبة من فتاوى وأفكار. صحيح أن الجميع مسلمون، ولكن الجميع ليسوا فى هذه الجماعات أو تلك، كذلك ليس كل المسلمين فى إيران التى تعتنق أفكاراً خاصة ولها أهداف سياسية وتسعى إلى

تصدير الثورة، مؤيدين للجماعات التي تختطف الرهائن أو تقتل الأجانب. ومع ذلك لا يمكن إنكار المخاوف التي تشعر بها أوروبا نتيجة لوجود تيار إسلامي متشدد على الجانب الآخر من البحر المتوسط، وامتداد أفكار وتوجهات هذا التيار إلى داخل الدول الأوروبية.. خاصة أن في أوروبا ستة ملايين مسلم مهاجرين من دول إسلامية وبعضهم يحملون معهم مشاعر عداوية متأثرة بالأزمات التي تعاني منها بلادهم.

وتستند خرافة التهديد الإسلامي للغرب على ثلاثة أسباب أخرى؛ السبب الأول هو التاريخ القديم للصراع بين الغرب المسيحي والعالم الإسلامي منذ أكثر من ألف سنة، فمن غزوات إيبيريا في القرن السابع إلى الحملات الصليبية التي بدأت في القرن الحادي عشر، ثم إلى الحروب والصراعات مع الإمبراطورية العثمانية التي استمرت من القرن الخامس عشر حتى انهيار هذه الإمبراطورية في سنة ١٩١٨، وهذا التاريخ مقل في العقل الغربي بذكريات غزو المسلمين لأسبانيا وتحويلها إلى دولة إسلامية وإقامة حضارة إسلامية فيها إلى أن تم استعادتها وتحويلها من (الأندلس) إلى (أسبانيا) في عام ١٤٩٢. وحتى اليوم ما زالت آثار الوجود الإسلامي في الدول السلافية. ويضاف إلى ذلك انتشار الأفكار المعادية للأتراك وللإسلام.. وباختصار فإن رأى هاليداي أن في الغرب حالة يسميها (القلق التاريخي) من الإسلام.

السبب الثاني لدعم خرافة الخطر الإسلامي أن الغرب بعد انتهاء الحرب الباردة، ظهرت فكرة ضرورة وجود عدو جديد للغرب وتم اختيار العالم الإسلامي ليكون هو العدو وذلك بتأثير المصالح من ناحية، وذكريات الصراع القديم من ناحية أخرى، حتى إن بعض التحليلات فسرت غزو الولايات المتحدة للعراق بأن الغرب ذهب للقضاء على صدام حسين باعتباره العدو الجديد بديلا عن الاتحاد السوفيتي العدو السابق.

والسبب الثالث لانتشار خرافة التهديد الإسلامي للغرب هو تزايد الهجرة من البلاد الإسلامية إلى دول الغرب، وتخوف الغرب من انتشار الثقافة الإسلامية مع ازدياد أعداد المسلمين، مما يهدد طبيعة هذه المجتمعات باعتبارها مجتمعات مسيحية وثقافتها تستمد جذورها من الثقافة اليهودية المسيحية.



وخرافة التهديد الإسلامي للغرب- في رأى هاليداي- تخدم مصالح الذين يمتلكون القوة في الغرب وهم مسيحيون، رأسماليون، أغنياء، امبراليون، وهم وإن كانوا يوجهون إلى شعوبهم إنذارا من خطر الإسلام فهو في الحقيقة إنذار كاذب، لا يختلف عن الادعاء السابق بأن الاتحاد السوفيتي كان يمثل قوة عسكرية تهدد الغرب وتبين بعد ذلك أن هذا الادعاء لم يكن صحيحا وأن

الغرب هو الأقوى عسكرياً وهو الذى هدد وفكك الاتحاد السوفيتى. ومثل الادعاء بأن العراق يمثل قوة عسكرية مسلحة بأسلحة الدمار الشامل ويمثل تهديدا للغرب وتبين بعد ذلك كذب هذا الادعاء، وكذلك ما قيل من أن الترابى فى السودان يمثل خطراً يهدد أمن الدول الغربية ولم يظهر شيء يؤكد هذا الادعاء، وكل ذلك ليس سوى ادعاءات، ودعايات، لتأكيد الفكرة بأن الإسلام هو العدو.



والحرب على الإسلام تشمل اتهامه برفض أحكام القانون، وعدم الاعتراف بحقوق المرأة ووضعها فى مكانة مهينة بالنسبة للرجل، وعدم المساواة بين المسلمين وغير المسلمين، ومعاداة الغرب، بل إن هذه الاتهامات تشمل اتهام الإسلام- والمسلمين- باعتبار الصراع مع الغرب واجبا دينيا، وتشمل أخيراً الادعاء بأن الجهاد فى الإسلام هو محاربة غير المسلمين فى العالم كله.

هذه الاتهامات- كما يقول هاليداي- ليست سوى تعبير عن الدعايات السياسية التى يروج لها بعض المفكرين والصحفيين فى الغرب لنشر العداء للإسلام وتبرير العدوان على بلادهم. وهذا ما جعل الاستعمار الغربى فى شمال أفريقيا يتحدث عن أهل هذه البلاد باعتبارهم مسلمين وكان ذلك هو المبرر لاحتلال أوطانهم. وهذا ما جعل التشدد الدينى يظهر فى العالم الإسلامى، فما دام هذا العدوان علينا لأننا مسلمون، فإننا نتمسك بأننا مسلمون، ونخوض حرب التحرير بهذه الصفة. وهكذا كان الغرب هو الذى اخترع تعريف المسلمين على أنهم فئمة ثقافية وعرقية مختلفة عن الغرب، وأن الصراع بينها وبين الغرب هو صراع دائم. وقد لجأت الدعاية السياسية الغربية إلى تقديم الخمينى وثورته فى إيران فى صورة مكروهة، وادعت بعد ذلك أن هذا هو التجسيد والنموذج للإسلام والدولة الإسلامية، وقد ساعد الخمينى نفسه على تأكيد هذه الصورة بدعوته للجهاد ضد أمريكا واعتبارها الشيطان الأكبر، والتحريض على الجهاد ضد الغرب.

ويقول هاليداي: إذا كانت هناك أكاذيب وخرافات حول الإسلام، فهى خرافات يتم اختراعها ونشرها ليس فقط فى أوروبا وأمريكا، ولكن يتم اختراعها ونشرها أيضا فى العالم الإسلامى ذاته، ولذلك فإن استعادة الصورة الصحيحة عن الإسلام يجب ألا تكون بمطالبة الغرب وحده بذلك، بل يجب مطالبة المسلمين بذلك أيضا.

وينبه هاليداي إلى عدم الاستهانة بالخرافات التى تسمى إلى الإسلام، على أساس أنها خرافات وسوف تنحسر تلقائياً وتظهر الحقيقة، لأن الخرافات بعد أن تنتشر تكتسب مع الزمن قوة خاصة بها، ولا يتم القضاء عليها بسهولة، والمثال على ذلك الخرافة الشائعة فى

الغرب بأن الإسلام يتضمن دعوة المؤمنين به لممارسة الإرهاب، ومعلوم للدارسين للإسلام أنه لا توجد علاقة بين الدين الإسلامى والإرهاب، وعندما ظهر الإرهاب بمعناه المعاصر فى القرن التاسع عشر لم يكن المسلمون هم الذين روجوا له، وفيما بعد نشأ الإرهاب فى أيرلندا الشمالية، وسريلانكا، وغيرهما من المجتمعات التى لا تدين بالإسلام. وإذا كان المقصود بالإرهاب هو النزعة للتعصب، وقمع المجموعات العرقية والدينية الأخرى، فسوف نجد فى تاريخ المجتمعات الإسلامية جرائم من هذا النوع، إلا أن المجتمعات الإسلامية ليست الوحيدة التى ظهرت فيها هذه الجرائم، فالمجتمعات الإسلامية لم تمارس التعذيب والإبادة العرقية لليهود ولكن حدث ذلك فى الغرب فقط وفى ألمانيا النازية بالذات، كما حدث نفى اليهود الشرقيين من أسبانيا، واليوم نجد أن الشعوب المسلمة هى ضحايا القمع والرعب من الغرب، ولا يستطيع أحد أن يدعى أن الشعوب الإسلامية التى تناضل من أجل تحرير أرضها ومن أجل الاستقلال هى المسؤولة عن الإرهاب. فهناك فرق بين الإرهابيين والمقاتلين من أجل الحرية.



يكرر هاليداي فى كتاباته أن نظرية التهديد الإسلامى هى ذاتها من الأوهام السائدة فى الغرب، ويرفض التركيز على أحداث نشأ فيها الصراع بين العالم الإسلامى وبين العالم الغربى عبر التاريخ. والادعاء بأن ذلك كان بسبب عقيدة الإسلام العدوانية ويقول: إن ذلك أيضا هراء وتضليل، والاعتقاد بأن العالم الإسلامى فى عمومته يهدد الغرب اعتقاد سخيف، فقد زال التهديد العسكرى الذى كانت تمثله القوات الإسلامية الموحدة فى الإمبراطورية العثمانية منذ زمن طويل، وبعد طرد هذه القوات التى كانت قد وصلت حتى أبواب العاصمة النمساوية فيينا والعاصمة المجرية بودابست فى القرن السابع عشر لم يعد لهذه القوة العسكارية الإسلامية وجود منذ عام ١٩١٨. وحتى لو افترضنا إمكان توحيد العالم الإسلامى وتجمع قواه العسكارية فلن تمثل هذه القوة تهديدا حقيقيا للغرب لعدم التكافؤ مع القوة العسكارية للغرب، فضلا عن استحالة تحقيق هذا الفرض على رغم كثرة الحديث عن هذه القوة والدعوة إلى تحقيقها، لأن الدول الإسلامية أصبحت منفصلة عمليا، ومتوحدة نظريا وفى الخطب والاحتفالات فقط. وعمليا فإن كل دولة إسلامية تعمل لتحقيق مصالحها الخاصة دون مراعاة لمصالح غيرها من الدول الإسلامية، بل إن الحروب تنشأ بين الدول الإسلامية، والنزاعات على الحدود بينها لا تكاد تخدم حتى تشتعل من جديد، وليس لدى أية دولة إسلامية، ولا لدى الدول الإسلامية مجتمعة أسلحة مثل إسرائيل أو الصين مثلا. وهكذا تبدو واضحة خرافة التهديد الإسلامى للغرب عند التحليل.

وعنصر آخر يشير إليه هاليداي من عناصر الخرافة السائدة عن التهديد الإسلامى للغرب. هو النظرية التى يؤمن بها كثيرون فى الغرب عن ضرورة وجود عدو، وقد يكون ذلك مفيدا لأن وجود

العدو والشعور بالتهديد يؤدي إلى استمرار الاستعداد والتحفز وعدم الاسترخاء، كما يحفز على تطوير صناعة السلاح، وعلماء الاجتماع يرون أن وجود تحديات خارجية له دور في استمرار حيوية ونهضة المجتمعات، ويدللون على ذلك بوجود التحدي السوفيتي أثناء سنوات الحرب الباردة الذي كان الدافع للإسراع بتحقيق القوة الاقتصادية والتكنولوجية والعسكرية للغرب، وهذه النظرية قابلة للنقد وإثبات عدم صحتها، لأن النظام الرأسمالي في الغرب هو الدافع الحقيقي لإحراز القوة العسكرية، فهذا النظام أساسه السعى إلى السيطرة على الأسواق وعلى المواد الخام والثروات، فهو في ذاته قوة توسعية تتجه إلى إخضاع العالم لهيمنتها وتسخيرها لزيادة مكاسبها الاقتصادية، ولذلك كانت الدول الرأسمالية أول من قام باستعمار الدول الأخرى التي لم تكن عدوا لها بأية حال من الأحوال، بل كان العكس هو الصحيح. فالنظام الرأسمالي القائم على المنافسة والريح والسيطرة على الأسواق ومصادر الثروة هو الدافع لاستئثاره ببناء القوة العسكرية، وليس وجود العدو. ولا يستلزم التقدم واستمرار تفوق الغرب وجود عدو، سواء كان هذا العدو هو الشيوعية، أو اليابان أو الصين، أو الإسلام.



هكذا يرفض هاليداي نظرية (ضرورة وجود عدو) السائدة في الفكر السياسي والاستراتيجي والعسكري في الغرب، كما يرفض تفسير الغرب للجرائم والانحرافات التي يرتكبها مسلمون على أنها التعبير عن الإسلام ذاته، ويقول إن الإسلام مثل كل دين، قائم على النصوص الواردة في كتابه المقدس وعلى السنة واجتهاد الفقهاء والمتخصصين في الدراسات العلمية الإسلامية، ولا بد من التفرقة بين النصوص، وتفسير وفهم البعض لهذه النصوص، فالنص القرآني له قداسة عند المسلمين ولا يمكن المساس به أو التفكير - مجرد التفكير - في مراجعته أو تغييره، ولكن الفهم والتفسير للقرآن هما الخاضعان للتغيير نتيجة تطور المجتمعات وتغير الظروف. وهذا أمر طبيعي ينطبق على كل الديانات الأخرى. فالكتب المقدسة تضع المبادئ التي تحدد علاقة المؤمن بربه، وعلاقته بغيره من البشر، وليس في الكتب المقدسة نظريات سياسية أو اقتصادية أو علمية، بمعنى أنه لا يمكن القول بأن الكتاب المقدس في ديانة من الديانات يتحدث عن سلطات الدولة، أو عن تفضيل النظام الرأسمالي أو الاشتراكي، أو عن حتمية توحيد أهل الديانة الواحدة في بولة أو في كيان سياسي واحد، أو الإبقاء على تعدد واستقلال الدول مع اتفاقها في العقيدة الدينية، وليس هناك نصوص في كتاب مقدس تتعارض مع الحداثة أو التطور والتجديد، وإن كان هناك من يمارسون التعسف في تفسير النصوص وتحميلها ما لا تحتل لتبرير أهدافهم. فهؤلاء لا يمثلون الدين، ولكن يمثلون أنفسهم، ولا يتحدثون عن الدين ولكن يتحدثون عن المفاهيم التي يريدون صب الدين فيها. وبناء على ذلك فليس كل ما تقوله جماعة مسلمة تعبير عن الإسلام، ولكنه تعبير عن

مواقفهم ونزعاتهم التي يكسبونها طابعا دينيا لكي تصيح لها قداسة ويكون رفضها أو الخروج عليها عدوانا على الدين.

يقول هاليداي: إن الإسلام ليس عقيدة جامدة، بل إنه دين يقبل التفسيرات المتجددة التي تسير كل عصر، وإن كانت هناك جماعات جمدت عقولها وأفكارها وحصرت نفسها في تفسيرات تنتمي إلى عصور الماضي ويستندون إليها لرفض مسانيرة تطورات الحاضر، فهؤلاء يعبرون عن التكوين النفسى والعقلى الخاص بهم ولا يعبرون عن العقيدة ذاتها. كذلك فإن الذين يتحدثون عن علم الإحصاء الإسلامى، أو علم الكيمياء الإسلامى، وغير ذلك، فإنهم يجهدون أنفسهم فيما لا طائل وراءه. لأن علم الإحصاء هو هو فى كل الدنيا وكذلك سائر العلوم، وكلها تخضع للتطور والتغير بينما الدين ثابت، وليس صحيحا ما يراه البعض فى العالم الإسلامى من ربط المتغير بالثابت، لأنهم لا يدركون أن فى ذلك إساءة إلى الدين حين تظهر عدم صحة نظرية علمية بعد أن قيل: إنها من عند الله!



ويرى هاليداي أنه ليس هناك شعب مسلم واحد فى سائر بلاد العالم، ولكن هناك شعوبا مسلمة لها لغات وأصول عرقية وعادات وثقافات متعددة يجمع بينها دين واحد هو الإسلام، وهذا هو المفهوم الواقعى عند الحديث عن (الأمة الإسلامية). فليس هناك أمة تتكون من شعوب لكل منها هوية مميزة وتاريخ خاص وسمات اجتماعية تختلف عن غيرها، وإلا فسوف يقال إن الأمة المسيحية أمة واحدة على رغم الاختلافات الجوهرية بين الشعوب التى تعتنق المسيحية، وحتى إذا نظرنا إلى دولة قامت على أساس الدين وهى باكستان نجدها متعددة القوميات من البنجاب، والبهنانيين، والبنغال والمهاجيرز. هذه الفكرة التى يطرحها هاليداي تحتاج إلى مناقشة من المتخصصين فى علوم السياسة والانثروبولوجيا والديانات.

ويناقش هاليداي الفكرة السائدة فى كثير من دول العالم عن الإسلام على أنه يتعارض مع الديمقراطية. ويستدلون على ذلك بأنظمة حكم إسلامية ليس فيها أية صورة من صور الممارسة الديمقراطية بالمفهوم العلمى الحديث. وكثير من الدعاة والحكام فى الدول الإسلامية يكررون الحديث عن فشل الديمقراطية الغربية، وفى رأى هاليداي أن غياب الديمقراطية فى الدول الإسلامية ليس بسبب كونها مسلمة أو أن التطبيق للإسلام الصحيح يعادى الديمقراطية، ولكن السبب يرجع إلى الخصائص والظروف السياسية التى تشترك فيها الدول الإسلامية، وأيضا بسبب التخلف وانخفاض مستويات المعيشة ومعدلات التنمية، وترسخ ثقافات سياسية تعادى التنوع والتسامح، وتبرر سيادة الحاكم اعتبار كلمته فوق القانون، ويتم تبرير كل ذلك بأنه التطبيق والالتزام بتعاليم الإسلام.. لذلك يؤكد هاليداي على ضرورة الفصل بين الإسلام وبين الصورة التى يمارس بها البعض

تعاليم الإسلام. فإن هؤلاء يحرصون على ربط كل تصرفاتهم بالدين لقطع ألسنة المعارضة. وهم أيضا الذين شجعوا على تشويه مفهوم العلمانية. والعلمانية مفهوم ظهر في أوروبا في مواجهة سيطرة الكنيسة على شئون الحكم، واضطهاد - بل وقتل - من يخالف حكم الكنيسة بادعاء أنه يخالف حكم الله. وفي ظل هذا المفهوم تم ارتكاب جرائم وتخلفت دول أوروبا، وتوقف نمو الفكر والعلوم، وعاشت أوروبا في عصور الظلام. وعندما بدأ عصر التنوير ظهر مفهوم العلمانية، بمعنى أن يكون للكنيسة مكانة عالية، ويرعى الناس تعاليم الدين، ويحرصون على علاقتهم بالله، وأما شئون الدولة والسياسة والحكم فإنها من أمور الدنيا ومرتبطة بمصالح الناس، ولذلك يجب أن تكون في يد رجال السياسة والحكم، وهؤلاء يخضعون للنقد والمحاسبة والمطالبة بتغييرهم وليست لهم قداسة لأن كل تصرفاتهم منسوبة إليهم ونابعة من فكرهم وإرادتهم وليست منسوبة إلى الله. فالعلمانية لا تتعارض مع الإيمان ولا تحارب العقيدة الدينية، ولكنها تضع الحاكم في مكان غير المكان الذي تضع فيه رجل الدين حتى يمكن إخضاع الحاكم للمحاسبة، وبدون خضوع الحاكم للقانون وللرقابة والنقد والحساب لا يمكن القول بوجود ديمقراطية. وبدون السماح بتعدد الأفكار والاجتهادات والحلول لمشاكل المجتمع، وبحرية التعبير عن الرأي دون خوف من اتهام لا يمكن رده، لا يمكن قيام ديمقراطية.



ويضرب هاليداي مثلا ببعض القوميات في أوروبا مثل القومية الأيرلندية، والقومية البولندية، وهما يتمسكان بالدين بقوة، ومثلهم في التشدد الديني مثل الأرثوذكس في اليونان، وروسيا، وقبرص، وصربيا. وهؤلاء يربطون بين الدين والسياسة ويتحدثون عنهما على أنهما شيء واحد. وفي هذا المناخ يكتسب السياسيون عصمة لا ينبغي أن يتحصنوا بها ضد المحاسبة والعزل عن طريق الانتخابات، وهذا ما جعل رجال السياسة في بلاد غير إسلامية يتسترون بالدين ليكتسبوا لأنفسهم هذه العصمة وهذه الحصانة، ففي الهند ملايين يخلطون بين الدين والسياسة لتأكيد النزعة الشوفينية الهندية في مواجهة النزعة الشوفينية الباكستانية، وكذلك في الولايات المتحدة كان للربط بين الدين والسياسة دور في قرارات وإجراءات لم يكن من الممكن تمريرها لو لم يتم تقديمها في إطار ديني وكأنها تنفيذ لإرادة الرب وتعاليم الكتاب المقدس!

ويناقش هاليداي الاتهام الموجه للإسلام استنادا إلى العنف الذي تمارسه الجماعات، فيقول: إن هذه الجماعات ليست المعبرة عن روح الإسلام، وهي لا تقدم المبادئ الإسلامية، ولكنها تقدم ما يبرر ممارساتها العدوانية. وهذه الجماعات لا تمثل ظاهرة إسلامية بل تمثل قوى نشأت في مجتمعات معينة كرد فعل للمشكلات التي تعاني منها هذه المجتمعات، وهي مشكلات اجتماعية وسياسية، كما أنها رد فعل لما تشعر به هذه المجتمعات من مخاطر الهيمنة الخارجية، وما تتعرض له من رياح

التغيير الاجتماعى والثقافى وخاصة بالنسبة لتغيير الوضع التقليدى للمرأة السائد فى مجتمعات بدوية، ولذلك فإن الغرب يخطئ حين يستسلم لادعاء هذه الجماعات بأنها إسلامية، بدلاً من دراسة الظروف التى أدت إلى نشأة هذه الجماعات وهى ظروف خاصة بكل مجتمع من المجتمعات الإسلامية، ونتيجة لذلك فإن صورة الإسلام الشائعة فى الغرب ليست صحيحة غالباً، ولا بد من دراسة تأثير التفاعل بين مفكرين إسلاميين فى بلاد مختلفة فى ظروفها السياسية والاجتماعية، وانتقال الأفكار نتيجة وسائل الاتصال الحديثة. والمثال على ذلك انتقال أفكار المفكر الباكستاني أبو الأعلى المودودى الذى كان يعيش فى الهند فى ظل اضطهاد جماعات السيخ والهندوس وغيرها من الجماعات المعادية للمسلمين.. إلى سيد قطب فى مصر الذى كان يعيش فى ظروف مختلفة. وفى التحليل النهائى فإن هذه الجماعات تهدف إلى القفز على سلطة الدولة عن طريق العنف ومستخدمه الغطاء الدينى. وهى تدعى أن انتماءها إسلامى وليس قومياً. ولكن التجربة أثبتت العكس، فقد قامت الحرب بين العراق وإيران وهما دولتان مسلمتان، وكان الدافع للحرب قومياً - سياسياً واقتصادياً - وليس دينياً. وليست الحرب العراقية الإيرانية هى الوحيدة التى نشبت داخل المعسكر الإسلامى، فقد تحركت الجيوش العراقية لغزو الكويت بهدف الاستيلاء عليها وكلاهما دولة مسلمة.. والجماعات الإسلامية فى أفغانستان يدور بينها قتال دموى يسقط فيه المئات.. وهكذا فإن الخلافات بين الدول والفرق والجماعات الإسلامية ذاتها أكبر وأعمق من خلافاتها مع الغرب، وعلى ذلك فإن الحديث عن الخطر الإسلامى، أو التحدى الإسلامى، مجرد وهم، أو هو وسيلة من وسائل الدعاية السياسية الغربية لأهداف أخرى.



ويعترف هايلداى أن من أسباب الخوف من الإسلام فى الغرب أن الإسلام ينتشر فى أوروبا والولايات المتحدة، ليس بين السود والمضطهدين كما كان يقال، ولكن بين مفكرين وسياسيين وشخصيات لها تأثيرها فى المجتمعات الغربية. والفيلسوف المعروف روجيه جارودى ليس المثال الوحيد، ومعروف أنه كان شيوعياً ثم تحول إلى الإسلام وأصبح اسمه رجاء جارودى، ومثاله فى الغرب كثيرون. يضاف إلى ذلك تزايد هجرة المسلمين إلى الولايات المتحدة، وبريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، وهولندا، والدانمرك، وسويسرا، والسويد، وبقية دول الغرب وقد نشأت فى داخلها مجتمعات إسلامية ومن المستحيل معرفة الأعداد الدقيقة للمسلمين فى الغرب، ولكن لا يقل عددهم فى بريطانيا عن مليون مسلم. وفى فرنسا أكثر من ثلاثة ملايين مسلم، وفى ألمانيا ما يقرب من مليونى مسلم. وفى الولايات المتحدة تتراوح التقديرات بين أربعة ملايين وعشرة ملايين مسلم. ويظهر تأثير هذه الجماعات المسلمة فى انتشار المساجد فى أنحاء أوروبا وأمريكا. ففي فرنسا أكثر من ألف مسجد، وفى بريطانيا ما يقرب من ٤٠٠ مسجد، بالإضافة إلى تزايد الاتحادات والجمعيات

الإسلامية حتى وصل عددها إلى المئات، وترتب على ذلك ظهور قضايا لم تكن تعرفها المجتمعات الغربية مثل الدفن الشرعى والذبح الشرعى واللحم الحلال، وملابس المرأة المسلمة وعزلها عن المجتمع، والمدارس الدينية الإسلامية، والصيام فى رمضان، ورحلات الحج من دول أوروبا.. كل هذه الظواهر تثير المخاوف فى الغرب وتجعل البعض يحذرون من عدم قدرة الغربيين على السيطرة على مجتمعاتهم بعد أن أصبحت هذه الثقافة الغربية عن الثقافة الغربية تشارك وتؤثر فى الحياة السياسية والاجتماعية.. هذه المخاوف من التأثير الإسلامى من داخل المجتمعات الغربية أكبر من المخاوف من التأثير الإسلامى الخارجى، وقد أدت القيود على الهجرة التى فرضتها دول الغرب إلى زوال المخاوف من تزايد المسلمين، كما أن النزعة العنصرية ضد المسلمين فى الغرب لم تشجع كثيرا من المسلمين على الهجرة، ففى فرنسا اشتدت حملة الزعيم لوبن العنصرى المعادى للمهاجرين وللعرب والمسلمين، وفى ألمانيا انتشرت نزعات اليمين المتشدد ضد المسلمين. ومن ناحية أخرى فرضت القيود على تلقى الجمعيات الإسلامية فى الغرب للتبرعات والمساعدات من الدول الإسلامية. وكذلك فإن الجيل الثانى من أبناء المهاجرين المسلمين أصبح أقل تمسكاً بالثقافة الإسلامية وأكثر ميلا للاندماج فى المجتمع الغربى وثقافته.



ويرى هاليداي أن تأثير الفكر الإسلامى الوافد من الخارج على الجماعات المسلمة فى الغرب تضاعف. وعلى سبيل المثال كان بعض المهاجرين إلى بريطانيا فى الثلاثينات يعتقدون أفكار الطائفة العلوية التى تأسست فى الجزائر، وكان فى فرنسا جماعات من المهاجرين المسلمين من شمال أفريقيا يعتقدون أفكار جماعات (التبليغ) التى تأسست فى الهند عام ١٩٢٧ وأصبح لها مراكز فى بريطانيا. وفى بريطانيا - على سبيل المثال - مهاجرون مسلمون من باكستان، والهند، وقبرص التركية، والبوسنة. وفى ألمانيا مسلمون قادمون من تركيا والبوسنة. وفى فرنسا مهاجرون من الجزائر، والمغرب، وتونس، والسنغال، وموريتانيا، وتركيا. وليست كل هذه الجماعات كتلة واحدة، فكلهم مسلمون، ولكنهم مختلفون فى فهم كل جماعة منها للإسلام، ومختلفون فى الثقافة والعادات والتقاليد الإسلامية، أما موقف الدول الغربية من المسلمين المهاجرين فهو يختلف بين دولة وأخرى. ففى بريطانيا يتمتع المهاجرون المسلمون من دول الكومنولث بحق التصويت. ولكن فرنسا وألمانيا لا تسمح بذلك. وفرنسا سمحت ببناء المساجد فى الأرض التى يملكها مسلمون. وسمحت بعض الشركات للمسلمين بأداء الصلاة فى وقت العمل، ولكن بريطانيا لا تعطى لهم هذا الحق.

ولكن الدول الغربية تشكو من تدخل حكومات بعض الدول الإسلامية وسعيها لاستقطاب المهاجرين المسلمين فى أوروبا وتجميعهم فى تكتل يخدم مصالحها، وتقدم لهم الأموال وتساعدهم

على بناء المساجد. وفي بعض الدول الإسلامية منظمات تتخطى الحدود وتعمل داخل الدول الأوروبية مثل منظمة العالم الإسلامي بمكة، ومثل الأنشطة التي تديرها إيران، وكان نظام الحكم في العراق بقيادة صدام حسين يفعل ذلك أيضا لأغراض سياسية. وبعض الأحزاب السياسية والدينية في الدول الإسلامية أنشأت لها فروعاً وشبكات في دول أوروبية، وأكبر مثال هو المنظمات الباكستانية في بريطانيا.

وتعانى دول الغرب من الصراعات داخل جماعات المهاجرين المسلمين بين العرب وغيرهم، فالأئمة الأتراك في فرنسا مثلاً يعتقدون أنهم أكثر معرفة بالقرآن وبالإسلام من العرب، والعرب يعتقدون أنهم هم الأكثر فهماً للإسلام، ويعتبر هاليداي ذلك دليلاً آخر على أن المسلمين ليسوا أمة واحدة.



والخلاصة أنه لا يمكن إنكار أن صوت الإسلام أصبح مسموعاً في الغرب أكثر من أى وقت مضى. وأن المسلمين أصبحوا يشكلون في بعض دول الغرب قوة سياسية، وهم في طريقهم إلى أن يصبحوا كذلك في بقية الدول الغربية، فقد بلغ عدد الاتحادات الإسلامية في بريطانيا - في عام ١٩٨٧ - ٢٤ اتحاداً وأصبحت هذه الاتحادات في موقف يسمح لها بالتقدم بمطالبها المتعلقة بتدريس الإسلام، والسماح بإنشاء مدارس إسلامية، ومنع تعليم التلاميذ المسلمين الرقص، والاستحمام المختلط للبنات والبنين، ودراسة الجنس، وغير ذلك من الأمور المسموح بها في المجتمعات الغربية.. وهذا ما يثير المخاوف في دول الغرب من أن يؤدي استمرار هذا المد الإسلامي إلى تغيير في ثقافة وقيم المجتمعات الغربية.

وهذا ما يستند إليه الذين يدعون وجود الخطر الإسلامي على الغرب. وهو ما يجعل المسلمين الذين يعيشون في الغرب يشعرون أيضاً بأنهم معرضون للتهديد.